الفصل الرابع والعشرون

لهبٌ مقدَّس وشيطاني

في الفترة ما بين عيد الميلاد سنة 1191م وليلة الغطاس في الثاني عشر، كان مصير الحملة الصليبية الثالثة على المحك. وخلال هذه الأيام العصيبة، تأرجح ريتشارد قلب الأسد بين شعور قوي بالثقة بالنفس وشكوك تنخر فيه وفي قدراته. وسط الوحول وابتهاجات بيت نوبة، كان لا بد أن يكون له عيد غطاس خاص به. وفيما دار فرسان الهيكل بكل جسارة في المناطق الريفية المحيطة بالمدينة المقدَّسة وعادوا يجرّون مئتي رأس ماشية ـ لحمٌ طازج يعطي الطاقة الكافية للجيش المسيحي خلال هجومه الأخير الفائق القوة على أسوار أورشليم ـ جلس الملك مستكيناً مستغرقاً في أفكاره.

كانت هُوامات سَحَرةٍ، تُضافُ إلى أعمال صلاح الدين، تلك التي تؤثر على فكر ريتشارد ومخططاته المستقبلية. لقد كانت والدته، إليانور، وعائلته وخدمه في أوروبا يقيمون في النورماندي وتحديداً في بونفيل سور توك Bonville sur Toke حيث كانت إليانور تراقب بعين النسر عشيقة زوجها السابقة أليس في روان، وتجمع ملكية بلانتاجينيه البعيدة كمثل الخيوط الصوفية.

أما شقيقه الأصغر جون فكان موجوداً في هاودن Howden في يوركشير

بمعية هيوج، مطران دِرَم Durham المحروم كنسياً تُخالجُهُ مشاعر الحقد حيال ريتشارد، وتكبر فيه الجسارة والجرأة كلما دخل في إطار سلطته المزيد من القصور والأراضي الإنكليزية، ويفصّل في مخيلته مخططات شيطانية ضد مملكة شقيقه.

قبيل حلول عيد الميلاد، عاد أخيراً إلىٰ باريس الرأس المدبّر للمكائد، أي ملك فرنسا فيليب أغسطس. وقدّم نفسه لرعاياه الشغوفين به على أنه بطل الحملة الصليبية الثالثة. مشى في الطرقات مختالاً مزهواً بنفسه لكونه هازم عكّا ونمر منطقة المتوسط. وسجد متظاهراً بالتقوى أمام مذبح القديس دنيس لتقديم الشكر على عودته بالسلامة. وبالفعل عاد بالسلامة. إلاّ أن ربع الجنود الفرنسيين فقط من الذين غادروا بصحبته من ڤيزيلي بمعنويات مرتفعة وتقوى شديدة، عادوا إلىٰ موطنهم. فقد غيّب الموت الكثير الكثير منهم بسبب الأمراض والحرب. ولم يكن فيليب أوف فلاندرز سوى أكثر الضحايا شهرة. وضع الملك من باب التوقير رقعةً من الحرير الشرقي الغالي الثمن على المذبح إشارةً لخدماته البطولية، وغادر بعد ذلك إلىٰ فونتينبلو لتدبير مخطّطه.

استحوذ ريتشارد على تفكيره. ربما كان هاجسه من زمن طويل كما لو أنّ ريتشارد شكّل قصة حياة فيليب. مرّت علاقتهما بسلسلة من المشاعر ولكن مشاعر فيليب الآن استقرت استقراراً دائماً عند النفور. في مطلع سنة 1192م تخلّى عن التظاهر بالتقيّد بالوعود التي قطعها لريتشارد وللبابا أَو باحترامه لهدنة الله كما لو كان يتخذ قراراً للسنة الجديدة. كان يرغب بالفلاندرز. ويرغب بفاكسن والنورماندي وأي شيء آخر يمكنه أن ينتزعه من ملكية بلانتاجينيه فيما كان مالكها مرهقاً في الأراضي المقدّسة.

«إن العالم يعلم بما فيه الكفاية مقدار الإخلاص والالتزام اللذين أبداهما لنذره»، كلمات دوّنها كاتب إنكليزي بمرارة ليصف السهولة التي أنهى بها

الملك الفرنسي حملته الصليبية النبيلة، وأبدى مشاعره المكبوتة، وعاد إلىٰ مخططاته الماكرة.

في مطلع سنة 1192م، استلم ريتشارد برقيات من لونشان، مستشاره الحِلف السمين يبلّغه فيها بعصيان شقيقه في إنكلترا، وبأنّ جون يطالب البارونات بأن يخلصوا له الولاء، ويحذر ريتشارد من عواقب عودة فيليب، ويحضّ الملك على التخلّي عن الحرب المقدَّسة والعودة إلىٰ دياره «بسرعة الريح» إن كان يرغب في الاحتفاظ بمملكته.

لم يعِر ريتشارد هذه الرسالة اهتمامه لصدورها عن شخص غير موثوق به لا يفكّر سوى بمصلحته الخاصة، فقد تلقّى برقيات مستعجلة من أشخاص يثق بمصداقيتهم وبدا له أن الجميع يتكلمون بصوت واحد. بيد أن ما أثار قلقه هو أنّ الأخبار التي تحملها هذه الرسائل مضى عليها شهران. جلّ ما كان يشغل باله تمحور حول النتائج الرهيبة التي ستنجم عن عودة حبيبه وحليفه السابق إلىٰ الساحة الأوروبية.

في الواقع، لم يكن فيليب يضيّع الوقت. في العشرين من كانون الثاني/يناير من سنة 1192م، دنا من أسوار القصر النورماندي الاستراتيجي في جيسور Gisors، نقطة الالتقاء القديمة التي جمعت الملكين الفرنسي والإنكليزي وزُيّنت بشجرة الدردار الشهيرة. في هذا المكان بالذات، وقف وجهاً لوجه أمام ويليام فيتز هيوج، مدبّرالنورماندي وطالب هذا الضابط الرفيع الرتبة بإطلاق سراح أُخته أليس المحتجزة في روان. لم تكن حركته هذه تنم عن أحاسيس رقيقة فحسب. طلبه هذا كان يخفي سبباً راجحاً إذ كان ينوي استغلال أليس للمرة الألف بما تبقى لها من قيمة. في هذه الأثناء، قدم مبعوثو فيليب سرّاً إلىٰ إنكلترا وطرحوا على جون عرضاً شيطانياً فقالوا له: تعال إلىٰ فرنسا على رأس قوة وتزوج من أليس الجميلة حتى وإن تقلّبت بين أيدٍ كثيرة، وضعْ يدك بفضلها على المنطقة الحدودية التي خصّصها ريتشارد بمثابة مهر لمن يتزوّج بأليس.

ومع أنّ جون كان متزوجاً إلاّ أن فيليب وجون نفسه لم يعتبرا هذا الزواج غير أمر تافه يسهل التخلّص منه.

عند الوصول إلىٰ أسوار جيسور، أظهر فيليب وثيقةً رسميةَ الشكل. وأعلن أنّها معاهدة رسمية عُقِدت مع ريتشارد في صقلية؛ وعد فيها بعودة أليس وإعادة أراضيها القيِّمة. وعلت وجهه أمارات تبيّن أن وثيقة فيليب مزيَّفة. فلم يكن يخفى على أحد أن ريتشارد لم يتفوّه بأي وعود أَو تنازلات تخص أليس في صقلية. لا بل العكس حصل في الواقع. ففي مسينا، أنهى المسألة بشكل صارم متخلياً عن عشيقة والده ومقدِّماً لفيليب مبلغاً زهيداً لتخفيف آلامه. ومع ذلك، أطال ويليام فيتز هيوج مناقشاته مع فيليب للحصول على توضيحات من سلطة عليا.

ودخلت إليانور عليهما. وسيطرت الملكة الأم البالغة السبعين من عمرها، بخطواتها الرشيقة وصوتها القوي، على الحديث. تولّى جواسيسها عملية إبلاغها بالاتصال المشكوك بأمره بين فيليب وجون. ولم تكن مفاوضات جيسور سوى الجزء السهل والظاهر. فالمشكلة العويصة كانت تكمن في ابنها الأصغر. أرسلت إلىٰ ويليام فيتز هيوج تعليمات مقتضبة مفادها ما يلي: بلّغ صاحب الجلالة الملك فيليب أنّ معاهدته ليست سوى تزييف واضح، وإن المدبِّر لم يتلقّ من الملك ريتشارد أي تعليمات عن تسليم أشخاص أَو أراضٍ لفرنسا، وأنّ القيام بأمر مماثل فيه انتهاك لعهد الله المعقود من قبل. وسرعان ما عاد فيليب إلىٰ باريس مكتئباً خاوي اليدين. في هذه الأثناء، غادرت الملكة على عجل إلىٰ إنكلترا للتفاهم مع ابنها جون «الطائش». عن هذا الموضوع كتب المؤرّخ الإنكليزي ريتشارد أوف ديفيز: «بكل قوتها، أرادت أن تضمن بقاء الثقة بين صغيري أبنائها... كي تموت أمهما، على الأقل، أكثر ارتياحاً من والدهما».

وصلت الملكة إلىٰ بورتسموث في الحادي عشر من فبراير (شباط)،

وصُدِمَت عندما اكتشفت أنّ جون يعبىء أسطولاً وجنوداً في ساوثهامبتون.

لم تقتصر الصدمة على هذا الأمر. إذ فيما كانت في طريقها إلىٰ ممتلكاتها الموروثة في أَلي Ely، تدفق عامة الناس من بيوتهم وتحلّقوا حولها في طرقات بلداتهم الموحلة، تتخبّط أقدامهم في الوحل وتنهمر الدموع من أعينهم. روّعتها أخبارهم عن الفوضى والعصيان السائد في البلاد. بلاد غاب عنها ملكها فخطّط شقيقه الأصغر للاستيلاء على الحكم، وعمَّت الفوضى في صفوف رجال الدين المرموقين، وحُرِم بعض الكهنة كنسياً فيما تصرّف آخرون تصرف السادة المالكين، وتجوّل الجنود في الطرقات الريفية يمثّلون فئة أَو أخرى. حتى المَيْت لم يكن يَحْظى بدفن يليق بحرمته. لقد كانت إنكلترا تنهار.

توجهت إليانور إلىٰ ويندسور تدفعها مشاعر الاضطراب والعزيمة ومن ثم إلىٰ أكسفورد فلندن ووينشستر. وفي كل محطة، كانت تحضّ النبلاء وتفتنهم وتهدّدهم كي يرفضوا تقديم المعونة التي تحتاج إليها مراكب جون ومرتزقته. وأرسلت لجون ذاته رسالةً لا لَبْس فيها: إن أصرّ على الذهاب إلىٰ فرنسا وكَسَر كلمتها، فإنّه سيخسر أراضيه وممتلكاته كلها في إنكلترا. كلامها هذا جعل جون يلين، وإن لفترة مؤقتة، رغماً عنه، ومشاعر الغضب تغمره.

بعد تحقيق غايتها هذه، وجّهت إليانور طاقاتها الجبارة نحو النزاع الشعبي المحيط بها. وكافحت كي تصلح بيد حديدية بين مختلف الفئات في الكنيسة من جهة وابن زوجها المكروه جوفري، ورئيس الأساقفة القويّ في يورك، ورفيق ابنها جون هيوج أوف دِرَم Hugh of Durham المحروم كنسياً، وحتى لونشان الخسيس الذي اختبأ في فرنسا وتاق للعودة إلىٰ إنكلترا ورغب أن يفرض سلطته مجدداً باعتباره مستشار ريتشارد الأوّل أَو أُسقف أَلي. استخدمت اللين والتهديد والصرامة والملاطفة كي تنشر السلام سعياً لإعادة النظام والانضباط إلىٰ البلاد. ومع دنو فترة الصوم مجدداً، شعرت إليانور بالإرهاق

بعد فصل رهيب أمضته في ترحال متواصل ودبلوماسية صعبة أعطت نتائج مرضية كما خيّبت أحياناً الآمال، جلست للكتابة لريتشارد:

يجب أن يتخلّى عن حملته الصليبية في الأراضي المقدَّسة. يجب أن يعود إلىٰ مملكته إن كان يريد الاحتفاظ بها. هذا الصوت كان، قبل أي شيء، صوتاً لا بد أن ينصاع لأوامره. إلاَّ أن مطلب إليانور لم يصل إليه قبل صيف سنة 1192م. وعندها كان قد وصل إلىٰ استنتاجاته الخاصة. لقد حان الوقت أن يكون له غطاسه الخاص.

II

أحمق أم حكيم؟

في مطلع شهر كانون الثاني/ يناير، يوم عيد ختان المسيح، جمع ريتشارد مجلسه لوضع خطة لحركته المقبلة. خلافاً للابتهاج والتوقّعات المسكرة التي كانت تغمر المعسكر، ساد المجلس جوٌّ من الكآبة. بلغهم خبر يفيد أنّ صلاح الدِّين خرج من أورشليم عبر التلال الخلفية وأصبح مرة أخرى خلفهم في تلك الجزر على بعد خمسة أميال جنوب الرملة. بدا لهم أن اللعبة الحربية ستدوم إلىٰ الأبد فكلما تقدم المسيحيون خطوةً باتجاه هدفهم المحبوب وجدوا خصومهم الرهيبين خلفهم يطلّون عليهم من أعالي الجبال.

في داخل المجلس، أحال ريتشارد مهمة تقييم الوضع إلىٰ الفرنجة الأصليين. ولكنهم كانوا متشائمين. ولم يجدوا أي فائدة من حصار القدس الآن، في هذه الظروف التعيسة. أما الأمطار والوحول والبَرَد والرياح فتجعل العمليات العسكرية من المستحيلات. وإذا زحف الصليبيّون حتى أسوار المدينة المقدَّسة؛ فلا شكّ أنّ رجال صلاح الدِّين سينقضّون عليهم من الجبال. وإن حدثت المعجزة وتمكّنوا من احتلال المدينة، فمن سيتمكن من الحفاظ عليها؟

إن الدفاع عن القدس عملية تتطلّب حامية ضخمة دائمة تجمع أشجع الفرسان. وبالإضافة إلىٰ ذلك، من لديه الاستعداد للبقاء في هذه البلاد؟ باحتلال المدينة المقدَّسة يتحقق هدف الحجّ المقدّس. وسرعان ما يهرول الأوروبيون على طريق العودة إلىٰ بلادهم على جناح السرعة. ويفتقر الفرنجة من أهل البلاد لقُدُراتٍ تسمح لهم بالسيطرة على مدينة محتلة دون مساعدة غربية.

وهكذا، وجد الصليبيّون أنفسهم أمام معضلة ضخمة. إن غزوا المدينة سيخسرون الرجال. وإن تخلّوا عنها سيقوّضون مجمل غاية الحملة الصليبية. ولم تقتصر المفارقة على هذا الحد. فقد اتفق أكثر المحاربين شجاعة والتزاماً، أي الرهبان العسكريون من فرسان الهيكل والإسبتاريين، على الرأي ذاته.

ذكر هؤلاء أنّ المنطق العسكري يقود إلىٰ الانسحاب لبضعة أشهر نحو عسقلان حيث يعيدون بناء المدينة الاستراتيجية كي تكون عقبة في وجه تعزيزات صلاح الدِّين من جهة الجنوب. وربّما يعودون، في فصل الصيف، ويهجمون مرّة أخرى على القدس. وعبَّر شاعر الحملة الصليبية فيما بعد عن شعور الرهبان العسكريين بالأبيات التالية:

إن لم تكن المدينة حاضرةً وعامرة
يقطنها أُناسٌ يودون البقاء فيها
فكل حاج من الحجاج، الأغبياء منهم والحكماء،
سيسارعون فور إنهاء حجهم
للعودة إلىٰ ديارهم
وبسبب تشرذم الجيش
ستُفقد الأرض من جديد

من يمكنه أن يتقدّم الآن ويدحض هذه الاستراتيجية الانهزامية ـ ما عدا الفرنسيين! فبعد الإكثار من الشكاوى والتمارض طوال الحملة الصليبية بأسرها،

والإحراج الذي سبّبه لهم فرار ملكهم، ملأ الاشمئزاز قلوب الفرنسيين حيال فكرة الانسحاب، وعلّلوا كلامهم بالرفض الذي سيصدر دون شك عن الجنود.

بالطبع كانوا على حق. ما أن انتشرت أخبار الانسحاب في صفوف الجند حتى انقلب الابتهاج إلىٰ ذعر وإنكار في البداية ثم تحوّل إلىٰ اليأس وجَلْد الذات. لعن الجنود اليوم الذي ولدوا فيه واليوم الذي انخرطوا فيه في هذه المهمّة الجبانة. وغادر العديد من الجنود الجيش فوراً، ولا سيما من صفوف الفرنسيين. غادر حوالي سبعمائة فارس فرنسي المعسكر للانغماس في ملذّات يافا وعكّا وصور، فيما كانوا يفيضون في اتهاماتهم لريتشارد وينادون بأنّهم وحدهم كانوا أصحاب عزيمة تجعلهم يواصلون الحرب.

راقب جنود صلاح الدين، من أعالي التلال، انسحاب القوات العدوة والذهول يغمرهم. لقد بدا لهم أنّ القدر إلىٰ جانبهم. ففي الحقيقة، كانت أسوار القدس تخفي وراءها دفاعات واهنة من الممكن أن تسقط بسرعة في حالة الحصار الشديد. وعندما اتّضح الموقف لصلاح الدِّين، أذن بتسريح رجاله وأمرهم بالعودة مجدداً في شهر أيار/ مايو، على أتم الاستعداد لنضالاتٍ جديدة.

طوال الأسبوعين التاليين، أحس الصليبيون المحزونون أنّ المخلّص يعاقبهم على جبنهم. تواصل هطول الأمطار والبَرَد دون انقطاع، فيما كانت الفرق تخوض في الوحول تاركةً معداتها وهاجرةً جيادها الغارقة في الوحل. ولكن بقية القوة الفرنسية المستشيطة غضباً في الرملة بقيادة دوق برغندي تجاهلت أوامر قائدها الأبرز هنري دو شامبان ومشت في الطريق الشمالية الفرعية باتجاه يافا فيما كان ريتشارد يلتف جنوباً نحو يُبنى Ibelin.

وأخيراً، وصلت القوة الرئيسية إلىٰ مقصدها في العشرين من يناير/ كانون الثاني. بدت عسقلان كومةً من الحجارة، واضطرّ الجنود للتسلّق على الصخور التي كانت تشكّل، في يوم من الأيام، البوّابة الرئيسية للمدينة الأبيّة. واستمرّ

هطول الأمطار لثمانية أيام عقب وصولهم. وعجزت المراكب عن الرسو في المرفأ بغية تزويد الحجّاج اليائسين الموحلين الجائعين بالزاد والمياه.

تحسّنت الأحوال الجوية خلال شهر شباط/ فبراير. وبدأ ريتشارد بحيويته المألوفة وحُسن قيادته المرهف يبثّ تدريجياً النشاط في صفوف رجاله، ولو اقتصر الأمر على تكليفهم بأعمال شاقّة. وللمرّة الأولى، وضعت الاختلافات الطبقية جانباً وعمل الفرسان جنباً إلىٰ جنب مع من هم دونهم طبقياً وحتى إلىٰ جنب النساء من أجل إعادة بناء المدينة. ارتفعت الأبراج من فوق الأسوار وأطلق على أحد هذه الأبراج اسم البرج الدامي لأنّ بناءه تمّ على يد فرقة من المجرمين، وتكفّلت ببناء البرج الثاني مجموعة من البدو اللطفاء، فيما بنت النساء البرج الثالث الذي استحق تسمية برج العذارى. واستعاد الجنود، بفضل هذا التقدّم الملموس بهجتهم، إلىٰ حدّ جعل ريتشارد يفكّر في الاستعانة من جديد بالفرنسيين. وصلته من عكا وصور تقارير عن وجود مشاحنات داخلية. فقد عادت العداوات القديمة إلىٰ الواجهة ونشب قتال بين مناصري الملك غي ومؤيدي كونراد دو مونتفرّا. ووقف أهالي بيزا في مواجهة سكان جنوى. أما الفرنسيون فقد استسلموا للبغايا وأصحاب الحانات. دوق برغنديا نفسه اعتدى عليه أشخاص لم يعرفوه فرموه من على صهوة حصانه، وأسقطوه في الطين.

أرسل الملك رسائل إلىٰ الفرنسيين يناشدهم الانضمام مجدداً إلىٰ جيشه في عسقلان: «يفضّل أن نكون كلنا يداً واحدة عند إجراء المشاورات، فالتفرقة ستُضعفنا وتعرّضُنا لهجوم العدو». احتوت هذه الكلمات على الإشارة الأولى بأنّ المشاورات مع صلاح الدِّين باتت وشيكة. واستناداً للتقارير الصادرة من صور وعكّا، فإن إقناع الفرنسيين بالتخلّي عن ملذاتهم في المدينة أمر في غاية الصعوبة. وعنهم كتب مؤرخ إنكليزي معروفٌ بانحيازه: «كانوا يستمتعون بمراقصة النساء. وأظهرت ملابسهم الفاخرة تخنّثهم؛ فقد كانت أكمام ملابسهم مربوطة بسلاسل ذهبية، وكشفوا بكل خلاعة عن خصورهم المطوّقة بأحزمة

مطرّزة. وضعوا حول أعناقهم قلادات مرصّعة بالجواهر، وزيّنوا رؤوسهم بأكاليل مجدولة تتخلّلها أزهار متعدّدة الألوان. حملوا في أيديهم كؤوس الخمر لا سيوف الحرب. وبعد تمضية الليل بطوله في معاقرة الخمر، راحوا يسلكون الدرب المؤدية إلىٰ بيوت البغايا».

من يرغب بعودة أشخاص بهذه المواصفات؟ ومع ذلك، هدأت أخبار المشاورات، لفترة مؤقتة، والفرنسيون المتذمرون، وافق العديد منهم على العودة إلىٰ عسقلان ـ شريطة ألا يبقوا لما بعد عيد الفصح. وفي حال لم يحدث شيء حتى ذلك الحين، طالبوا بحرية المغادرة والعودة بأمان إلىٰ أوروبا. لم يكن أمام ريتشارد خيار آخر سوى الموافقة على هذه التسوية.

لم يحصل الملك على هذا القدر من النجاح مع كونراد أوف مونتفرّا. ففي مؤتمر عقد في برج إمبر Casal Imbert شمال عكّا، أحبط المتمرّد جهود الملك في محاولة إقناعه بالانضمام مجدداً للحملة الصليبية. وبدا الوضع للإنكليزي وكأنّ مونتفرّا يبذل كل ما في وسعه لتقويض سلطة ريتشارد. وسرت في المعسكر شائعة تصف الماركيز بأنه يختبىء من حنق الملك في مقصورة زوجته في صور.

قبيل حلول عيد الفصح، بدت على عسقلان أخيراً مظاهر مدينة عامرة من القرون الوسطى مرة أخرى. وغمر الابتهاج ريتشارد على هذا الإنجاز. ولكنّ أسباباً أخرى دعته للشعور بهذا الابتهاج. فخلال مهمة استطلاعية إلىٰ القاعدة الأمامية الأبعد نحو الجنوب، أي قلعة الداروم، وهي القلعة الوحيدة في السهل الساحلي التي لم يهدمها صلاح الدّين، وقع ريتشارد على قافلة تنقل حوالي ألف ومئتي أسير مسيحي فحرّرهم دون قتال بعدما فرّ الحرّاس عند رؤية راية الملك المهيبة. أقام الملك حفلة فاخرة وأمر بتحضير ما لذّ وطاب للجنود وأغدق عليهم الهدايا والعلاوات إمّا لأنّ المهلة الأخيرة التي حدّدها الفرنسيون

لا تتعدّى عيد الفصح، وإما لأن الملك أَمل في بقاء حلفائه المتقلبين لشعورهم بالنشوة بسبب ما أنجزوه في عسقلان. وكتب شاعر البلاط ما يلي:

«حيث يتناغم القلب النبيل والعمل البطولي.

لا تكافؤ بين الفكر الشحيح واليد المعطاء

لا بل يهمه ما تعطيه

فلتكن كل عطية مرفقة بقلب كريم واسع الهبات».

لكنّ الحفلات والعلاوات لم تغيّر من قرار الفرنسيين بالرحيل. وأجبر ريتشارد، على مضض وبقلب ملؤه الحزن والمرارة، على الوفاء بوعده. وقف ينظر إلىٰ الجنود الفرنسيين يغيبون عن ناظريه على الطريق المؤدية إلىٰ يافا. وبسرعة، أرسل إلىٰ قادته في عكّا رسالة مستعجلة يأمرهم فيها بعدم إدخال الفرنسيين إلىٰ المدينة لدى وصولهم إليها.

في أورشليم البعيدة، شعر صلاح الدين بالسعادة عند تلقّيه أخبار التطوّرات الأخيرة. لعلّها تشكّل منعطف طريق. بلّغه يوماً أحد جواسيسه بانسحاب الفرنسيين من جيش الصليبيين، فأرسل السلطان رسالةً جذلةً عمَّمت الخبر في كل أنحاء مملكته. وفي هذه الظروف، كان لا بد من إيجاد الأعذار لنبرة التفاؤل المفرط المشحون في الرسالة: «إن ضعف عزيمة الفرنسيس جعلهم يغادرون البلاد ويتركونها دون مُدافع عنها تقريباً. لقد خارت قوة الجيش الصليبي الحربية وانهارت سطوته. وسنتمكّن إن شاء الله في فترة قصيرة من فتح عكا وصور».

اتّسمت هذه الفترة على الجانبين بوفرة الأحلام والأماني. ودوّن أحد الكتّاب الإنكليز أنّ أجواء عيد الفصح الجذلة حَدَت بالملك ريتشارد إلىٰ مَنْح ابن الملك العادل رتبة فارس. أُغفل هدف هذا الاحتفال الغريب، الذي تمثّل ولا شكّ في التحضير بودّ ورفق لاتفاق بين الطرفين.

وفي عيد الفصح هذا، أَو كما أراد الكاتب أن يعتقده القرّاء، شعر صلاح الدِّين بالفضول حيال الأسطورة التي تذكر أنّه في كلّ عشية فصح، فإنّ لهيباً ينزل من السماء ليضيء الشموع في الكنيسة المباركة. هكذا جاء صلاح الدين تلك العشية إِلىٰ الكنيسة، واختلط بالأسرى المسيحيين فيها لرؤية اللهب المقدس بأمّ عينه. وكما تروي الأسطورة، اشتعلت النار كما توقّع الناس. ساورت الشكوك صلاح الدِّين فأمر بإخمادها. وبعد أن انطفأت، اشتعلت مرة ثانية. وللمرة الثانية، أُخْمِدت ولكنها اشتعلت من جديد، مما أثار الدهشة. واقترب الأسرى من المسيحيين الآخرين وتهامسوا: «ما الفائدة من مواجهة قوة الله المهيبة؟ لا يمكن دحض قدرة الله، ولا يمكن مقاومة إرادته»!

ونقلاً عن الكاتب الإنكليزي، يبدو أن السلطان تأثّر بما رآه إلىٰ حدّ جعله يتنبأ بسقوط المدينة المقدَّسة في يد العدو في غضون سنة ـ أَو أنه تنبأ بموته.

لم يورد المؤرخ المسلم في ذلك الزمان أي ذكر للنار المقدَّسة في الضريح[1]. لا بل تتّسم هذه الفترة الزمنية بأمور ملموسة. فخلال عيد الفصح، تلقَّى صلاح الدِّين رسالة من ريتشارد جاء فيها[2]: «إني أُوثر الاجتماع بالملك العادل أخي ففيه مصلحة تعود على الطائفتين، فقد بلغني أنّ السلطان فوّض أمر الصلح إِلىٰ أخي الملك العادل».

---

(1) بل ذكرها أبو شامة في كتاب الروضتين 2/ 231 - 232. فقال: «ولهم في هذا المكان - كنيسة القيامة - ضلالةٌ تقع في كل سنة في اليوم الذي يليه يوم فصحهم، وهو أنه يزعمون أن نوراً ينزل من السماء.. ولقد حضرتُ في زمن الصبا (أبو شامة من القدس) يوم سبت النور هذه الكنيسة على سبيل التفرّج.. فإذا كان وقت الظهر دخل البطرك القبة، وأخرج شمعة موقدة زعم أنه أوقدها من القنديل الذي اشتعل بالنور المنزّل من السماء، فيأتيه النصارى بشمعهم فيقدونه من تلك الشمعة، فيمتلىء المكان بالشموع الموقدة، ويظهر على النصارى من الفرح والاستبشار ما لا مزيد عليه...» (المترجم).

(2) ابن شداد، ص 205.

قد تنطوي هذه الرسالة على تقدّم مفاجيء. وقد تحتوي فقط على المزيد من الكلمات الخاوية. لذلك ردّ صلاح الدِّين على ريتشارد برسالة قال فيها: «إن الحديث قد جرى بيننا مراراً وما أسفر عن مصلحة، فإن كانت الدفعة كتلك الدفعات، فلا حاجة إلىٰ الحديث. وإن كان الغرض بث حال تقارب الأمر فلا بأس. وأنا لا أجتمع بك إلاَّ أن أرى ما يقارب فصل الحال»[1].

III

أهون الشرّين

بعد يوم من عيد الفصح، بدأ المسافرون القادمون من أوروبا إلىٰ سورية بالوفود إلىٰ الشرق. وكان بينهم الراهب هيرفور Hereford الذي حمل معه رسالة من لونشان، مستشار ريتشارد، يُطْلِعُهُ فيها على الخلافات الناشبة في إنكلترا وعن مطامع شقيقه جون في الاستيلاء على العرش: «أيها السيد الجليل، أتوسل إليك بكل احترام أن تعود إلىٰ الوطن، وأن تنتقم من كل أولئك الذين ينشرون هذا المرض، والذين ستزداد شرورهم. وذلك أنهم إذا استولوا على المملكة، فلن تستطيع استرجاعها إلاّ بنضالٍ مريرٍ».

أصيب ريتشارد بالذهول لكن عزيمته لم تضعف، فجمع باروناته وقرأ على مسامعهم رسالة لونشان. وأبلغهم بضرورة مغادرته الحملة الصليبية على الفور للعودة إلىٰ بلاده. وتُلقى على كاهل ثلاثمائة فارس وألفين من الرجّالة مهمة مواصلة الحرب على نفقته. فمن منهم سيبقى في مكانه ومن سيرافق الملك إلىٰ أوروبا؟

ساد الاهتياج جمع البارونات وغادروا المقصورة الملكية للتشاور فيما

(1) ابن شداد، ص 205.

بينهم. من سيستلم زمام القيادة في غياب ريتشارد؟ هل يوجد في عديدهم من يتّصف ببراعة كافية في العمليات الحربية، وبدبلوماسية كافية لضمان متابعة قضية الصليبيين حتى النهاية؟ بدا الأمر وكأنهم عادوا خمس سنوات في الزمان. ووجدوا أنفسهم مرّةً أخرى فريسةً لخيار ماكر بين شخص غير كفء وآخر خائن.

صحيح أنّ ملك أورشليم السابق، غي دو لوسينيان، وفيّ للقضية إلاّ أنه لم يكن أهلاً للقيادة. أما المركيز دو مونفرّا فقد كان مخادعاً كما أنه في طور التباحث مع صلاح الدِّين لمصلحته الخاصّة.

عاد الفرسان إلىٰ مقرّ ريتشارد في الوقت المحدّد. وقد اجتمعوا على رأي واحد: إن لم يحلّ محله من يضعون فيه ثقتهم فقد قرّروا جميعاً العودة مع ريتشارد إلىٰ بلادهم. لم يكن لغي أي فرصة في النجاح؛ فمعه القضية خاسرة ولا شك أنه ما من أحد يحترمه أَو يطيع له أمراً. ظهر بكل جلاء أن كونراد أقوى الخيارين. إلاّ أنه قد ينضوي تحت راية من يدفع له أكثر. وهو لا يتصف بالمهارة والثبات فحسب، بل لا يرفض له الفرنسيون أمراً، تذمّر ريتشارد وراوغ وذكر المثل القائل[1]:

«ما بين غمضة عين وانتباهتها يبدّل الله من حال إلىٰ حال»

ورَضخ الملك للقرار في آخر المطاف. وانطلق وفد من صور بقيادة هنري دو شامباني وعضوية النبيلين المحليين باليان أوف إيبلين ورينو أوف صيدون، بهدف إعادة ملك أورشليم الجديد بكل ما يستحقه من تألّق وبهاء.

في هذه الأثناء، قدم الملك غي الخاسر في النزاع السياسي إلىٰ ريتشارد سعياً وراء جائزة ترضية. فقبل سنة، سيطر فرسان الهيكل على قبرص بعد دفع

(1) في الأصل: «There is many a slip between the Cup and the Lip». ومعناه تقريباً: هناك إمكانياتٌ متعددة ما بين الكأس والشفة!

أربعين ألف قطعة ذهبية نقداً وعدّاً إلىٰ ريتشارد. وفي الواقع، قدمت الجزيرة للحملة الصليبية مساعدة قيمة في تأمينها للحبوب. ولكن بسبب غرور فرسان الهيكل وقسوتهم بالإضافة إلىٰ الضرائب الباهظة التي أثقلوا بها كاهل سكان قبرص، شابت حكمهم الاضطرابات والثورات. وعقب الثورة الثانية في نيسان/ أبريل 1192م، أعاد فرسان الهيكل الجزيرة إلىٰ ريتشارد بعد أن بان لهم بأنّ مشاكلها أكبر من فوائدها. عرض غي شراء الجزيرة ووضع في يد ريتشارد ستين ألف قطعة ذهبية أخرى. أُعجب ريتشارد بهذا الالتماس الذي يحلّ مشكلتين في آن واحد. وأبحر غي فرحاً إلىٰ فاماغوستا وسُرّ معظم الفلسطينيين لرحيله. يقول المثل: يضحك كثيراً من يضحك أخيراً. وكان الضحك الكثير من حظ غي فقد أطلق سلالة لوسينيان القبرصية الملكية التي توارثت عرش الجزيرة لحوالي ثلاثمائة سنة أخرى.

في هذه الأثناء، في صور، خرّ كونراد البارد الأعصاب عادةً على ركبتيه ما أن سمع بنتيجة المشاورات ورفع ساعديه نحو السماء بتذلّل وقال: «أيها الرب! يا من خلقتني ونفخت الروح في جسدي، أنت من ابتدعت ملكاً عادلاً رحوماً. أتوسَّل إليك، اللهم، إن كنت ترى أنني أستحق حكم مملكتك، هبني عرشي. وإن كنت لا تجد فيّ خصال الملوك، فلا ترضَ بترقيتي». ثم مشى بزهو في شوارع مدينته ليتحسَّس ابتهاج رعاياه. لقد تمكَّن أن ينقذ، في الماضي، مدينته من براثن صلاح الدِّين. أما الآن، فقد كُلِّف بإنقاذ المملكة بأسرها.

ولكنّ فرحته لم تدم طويلاً وكذلك الأمر بالنسبة لابتهاج رعاياه.